حوارات

حوار عن التعريف بفقه العلوم

مع د. إدريس نغش الجابري[١]
حاوره: د. عبد الغني سلطان الفقيه[٢]

(١) الدكتور إدريس نغش الجابري أستاذ باحث في الابستمولوجيا وتاريخ العلوم ومناهجها، والرئيس الفخري لمركز ابن البنا المراكشي للبحوث والدراسات في تاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية بالرباط. درَّس الفلسفة والابستمولوجيا ومناهج البحث العلمي في عدة مؤسسات جامعية، وأستاذ علم تاريخ الأفكار ومناهج البحث العلمي بجامعة القرويين، شغل مدير أكاديمية نماء للعلوم الإسلامية والإنسانية بالرباط سابقًا، وهو خبير بحوث وبرامج ومقررات جامعية بعدة مؤسسات داخل المغرب وخارجه. أشرف على عدة تكوينات وتدريبات علمية وبيداغوجية جامعية. ونشر العديد من الكتب والدراسات العلمية فى مجلات محلية ودولية محكمة. وهو أيضًا شاعر صدر له ثلاث مجموعات شعرية.

(٢) أستاذ الفقه وأصوله وفقه السياسة الشرعية (اليمن)

السؤال ١:

الإبستمولوجيا، أو فلسفة العلوم، أو تاريخ العلوم، أو نظرية المعرفة، **(أو فقه العلوم كما يسميها ضيفنا في هذا الحوار الأستاذ الدكتور إدريس نغش الجابري)**، ألفاظ جاءت إلى الدنيا وشغلت الناس كما كان يقال عن المتنبي، فلا تكاد تجد مفكرًا، ولا متخصصًا، ولا باحثًا، ولا حتى صحفيًّا، إلا ويستعمل هذه المصطلحات، أحيانًا قليلة بحق، وأحيانًا كثيرة على غير حق، بحكم البروبغاندا التي صاحبت انتشار مصطلح الإبستمولوجيا في السنين الأخيرة، إن لم نقل في خلال القرن العشرين ومطلع القرن الواحد والعشرين.

كيف يمكنكم دكتور -رفعًا للبس المفهوم- تقديم صورة مركزة للمقصود بهذا المصطلح، وبالمطالب التي تشكل مجال فقه العلوم؟

الجواب:

الحديث عن المصطلحات المستعملة للدلالة على فقه العلوم، والتعريفات التي تقدم لها، يقتضي وضع هذه الأمور في سياقها التاريخي. فقد غزت اليوم فلسفة العلوم أو الإبستمولجيا كل المعارف والعلوم، وكل حقول العلم. لكن الميدان الذي نشطت فيه في الغرب في البداية ولفترة طويلة كان هو العلوم الدقيقة: الرياضيات الفيزياء ونحوهما. تقريبًا حينما نرجع إلى بدايات الإبستمولجيا في القرن التاسع عشر وخصوصًا في القرن العشرين ستجد المادة العلمية التي اشتغلت عليها هي مادة العلوم الدقيقة. ففيها نشأت أبحاث الإبستمولوجيا المعاصرة. ثم امتدت الهوينى على استحياء إلى العلوم الإنسانية، حيث بدأت تحاول إجراء تطبيقات في مجالات علوم النفس والاجتماع والتربية وغيرها، وخاصة بعد أن صار مفهوم الابستيمي على يد الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو أحد المفاهيم المهمة في فلسفته، رغم هجومه الشديد على العلوم الإنسانية. وانتقل اللفظ إلى البيئة العربية الإسلامية مرتديًا لباس فلسفة العلوم التي نشأ فيها وترعرع، تارة،

ومختلطًا بالاستعمال الفوكوي أحيانًا أخرى، في حين بقي في استعمالات البعض الآخر مشبعًا بنظرية المعرفة الكلاسيكية وأسئلتها التي تجاوزتها أبحاث الإبستمولوجيا المعاصرة.

إن الأبحاث الابستولوجية في مجالات العلوم الإسلامية ما زالت لا تتقدم بخطى قوية، ثم المتقدمون ليس كلهم في مستوى التعامل مع هذه المادة العلمية المتعددة المشارب والمجالات. فالمتقنون للإبستمولوجيا وتاريخ العلوم يكتفون بتطبيقاتها على التراث العلمي العربي في العلوم الدقيقة **(كما يفعل رشدي راشد وأحمد جبار وبناصر البعزاتي ومحمد أبلاغ)**، والباقون ممن يستعمل اللفظ أغلبهم غرباء عنه، فهم ليسوا من أهل الاختصاص في مجال الإبستمولوجيا، ولا حتى في مجالات العلوم الإسلامية. وقد آن الأوان لامتحان أدوات الإبستمولوجيا وهي تدرس مادة غير المادة التي تخلقت فيها، فلعلنا نعيد تخليقها خلقًا جديدًا بفضل التربة النوعية التي سيعاد إنشاؤها فيها إنشاء، على قاعدة الإبستمولوجيا نفسها: أن الموضوعات تؤثر في المنهجيات.

من ناحية تاريخ دلالات المصطلح: كان مبحث الإبستمولوجيا عمومًا في صيغته القديمة نظرية المعرفة، وهي ثلث الفلسفة: فهناك الثلث الأول وهو نظرية الوجود، والثلث الثالث هو نظرية القيم، والثلث الثاني الذي يتوسطهما هو: نظرية المعرفة. نظرية الوجود مدارها على مباحث الوجود الثلاثة: أصل العالم، وطبيعته، ومصيره، ونظرية القيم مدارها على تصرفات الإنسان في العالم: قيمه الأخلاقية والسياسية والاجتماعية والجمالية... ونظرية المعرفة: مدارها على ثلاثة أسئلة: هل يمكن أن نعرف؟، وكيف؟، وما قيمة معارفنا؟: أقطعية هي أم ظنية؟، أثابتة مطلقة، أم متغيرة نسبية؟

طبعًا لفظ إبستمولوجيا epistemology مركب من ابيستمي episteme التي تعني علمًا ومعرفة، ولوغوس Logos وتعني الخطاب أو العلم، أو العقل، أو النقد، أو المنطق. والجمع بين اللفظين يعطي عشرات التركيبات، لم يحفظ الاستعمال منها في القرن التاسع عشر وما تلا ذلك من تطورات إلا البعض، وخاصة علم العلم، ومنطق العلم، ونظرية العلم، ونقد العلم. وعُبِّرَ عن كل ذلك بلفظ **(فلسفة العلم phlosophy of science)**، إيذانًا بالانتقال من نظرية المعرفة القديمة، بأسئلتها التي لم تعد محط نظر كبير حتى من قبل الفلاسفة المعاصرين، إلى ممارسة جديدة. بدأ هذا التحول خلال الربع الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي: ففي عام ١٨٣٤م كتب أندري ماري انبير **(ت ١٨٣٦)** André-Marie Ampère كتابه **(محاولة في فلسفة العلوم: أو تجربة تحليلية لتصنيف طبيعي لجميع المعارف الإنسانية)**، فجعل معنى مصطلح **(فلسفة العلوم)** وضع تصنيف للمعارف الإنسانية وإنجاز تحليل للأصناف المقترحة لها، وهي في نظره قسمان: العلوم الكونية أو العقلية والعلوم الاجتماعية.

عمل اندري ماري انبير مهم من ثلاث جهات: أولاً: إقصاؤه للقسم الذي سماه الفلاسفة القدماء الفلسفة الأولى: أي الميتافيزيقا، وثانيًا: اختزاله مهمة فلسفة العلوم في مسألة

تصنيف العلوم التي صارت بعده مسألة جزئية من ضمن مسائل أخرى يهتم بها فيلسوف العلم، وثالثًا: اقتصاره على النظر التحليلي الذي سيصير جزءًا من طرق النظر التي يسلكها فيلسوف العلم في عمله.

في السياق التاريخي نفسه، وبالضبط بين ١٨٣٠ و١٨٤٠ كان أوغست كونت Auguste Comte يؤسس المدرسة الوضعية في كتابه **(دروس في الفلسفة الوضعية)** مركزًا أيضًا على النظرة التصنيفية كجزء من عمل فيلسوف العلم، ويضع تدرجًا للمعارف مبينًا أن فلسفة العلوم يجب أن تكون علمًا جديدًا أو تخصصًا جديدًا مهمته أن يبحث في الأواصر التي تربط بين هذه العلوم فيركبها، في علم أعلى هو فلسفة العلوم. لقد استغرق تأليف كتابه عشر سنوات بين عامَيْ ثلاثين وأربعين من القرن التاسع عشر. كان أمبير وكونت فرنسيين، وفي بريطانيا نشر سنة ١٨٤٠ أيضًا كتاب ويليم ويويل (ت ١٨٥٧م) William WHEWELL **(فلسفة العلوم الاستقرائية بناءً على تاريخها)**، حيث تم إدخال فلسفة العلوم لأول مرة في القاموس الإنجليزي، ودخل أيضًا معه معنى جديد لمصطلح فلسفة العلوم، وهو: تاريخ العلم. لم يعد فيلسوف العلم يهتم بتصنيف العلوم وتركيبها فقط، بل أيضًا بالتاريخ لها.

بعد سنوات قليلة -أي في ١٨٥٤م- وضع جيمس فريدريك فيريي **(ت ١٨٦٤)** James Frederick Ferrier أيضًا كتابًا مهمًا يستعمل فيه مصطلح الإبستمولوجيا هذه المرة، لكن قصد به شيئًا أرقى من مجرد العمل الوصفي والتركيبي والتاريخي، بل العمل العقلي في العلوم: كيف يتم إصدار خطاب عقلي عن المعرفة العلمية؟ وذلك في كتابه الشهير **(مؤسسات الميتافيزيقا)** Institutes of Metaphysic the Theory of Knowing and Being. بالطبع عنوان الكتاب يوحي بأنه فلسفي، لكن ليس الأمر كذلك. فهو يريد في الحقيقة أن يبيّن كيف تؤسَّس الميتافيزيقا تأسيسًا علميًّا، فالهم الأمبيريقي كان دومًا حاضرًا في الثقافة الأنغلوسكسونية. وحين يستعمل هنا ميتافيزيقا لا يجب أن نستبعد هذا الهم الأمبريقي أو التجريبي في دراسة المعرفة عمومًا. إنه يريد أن يبيّن كيف نكون نظرية في العلم، كيف نكون نظرية عن المعرفة العلمية. وفيما بعد سيصير هذا الأمر عنصرًا مهمًا جدًّا من عناصر الدراسة الإبستمولوجية للعلوم.

في نهاية القرن التاسع عشر صارت الإبستمولوجيا أو فلسفة العلوم تجمع وصف المعرفة العلمية وتصنيفها وتركيبها، والتأريخ لها، ثم أضيف لها تحليل اللغة العلمية، وخاصة بعدما بدأت المدرسة الوضعية المعاصرة في الانتشار، وبدأت في الظهور تحت ما يُسمَّى مدرسة التحليل: أي أننا لا ينبغي أن نقبل أي عبارة منطقية أو فلسفية إلا إذا كانت قابلة للتحليل التجريبي لمكوناتها القضوية. فبدا يتأسس إذن في هذا السياق تقليد جديد في الإبستمولوجيا يصطلح عليه بالتقليد الأنغلوسكسوني، تصنيف العلوم، وصفها وتحليلها وتركيبها، ودراسة تاريخها، وتحليل لغة العلم، وتكوين نظرية عنها: ها نحن أولاء على أعتاب استكمال معنى الإبستمولوجيا.

وفي بداية القرن العشرين، وبالضبط في

١٩٠٦م، دخل لفظ الإبستمولوجيا لأول مرة إلى اللغة الفرنسية في **(القاموس الفرنسي المصور)**، وكان نشاط غاستون باشلار شيخ الإبستمولوجيا الفرنسية قد بدأ في الظهور، وكثر المهتمون بالبحث الإبستمولوجي في العالمي الفرنسي والأنغلوسكسوني، نشرت كتب كثيرة توسع دلالات اللفظ ومجالات اهتمامه، وانتهى الأمر بإضافة معنى مهم للإبستمولوجيا، وهو نقد المعرفة العلمية. وجمع الفيلسوف الفرنسي اندري رالاند حصاد تعريفات المصطلح وصياغتها في تعريف جامع في قاموسه الضخم عن المصطلحات التقنية للفلسفة، الذي لم يحظَ -يا للأسف- إلا بترجمة رديئة إلى اللغة العربية. فقال لالاند: الإبستمولوجيا هي الدرس النقدي لمبادئ مختلف العلوم وفرضياتها ونتائجها، الرامي إلى: تحديد أصلها المنطقي، وقيمتها، ومداها الموضوعي.

إن **(تاريخ العلوم)** يتقاطع مع مباحث فلسفة العلوم والإبستمولوجيا، ولكنَّ مصطلحي **(فلسفة العلوم)**، **(والإبستمولوجيا)** هما من باب الألفاظ المتواطئة، والمباحث التي يكمل بعضها بعضًا لتحصيل بعض ما نسميه نحن: **فقه العلوم**.

أصل الآن إلى جمع تعريف جامع لما أقصده بفقه العلوم: إنه الدراسة التحليلية النقدية للمعرفة العلمية، من جهة موضوعاتها ومناهجها ونظرياتها ومفاهيمها، والتعرف إلى أخطائها وأزماتها من خلال تطورها التاريخي.

سؤال ٢:

لماذا اخترتم لفظ فقه العلوم ترجمة لهذا الاصطلاح؟ هل أنتم في ذلك تسيرون على صيغة فقه الفلسفة التي استعملها طه عبد الرحمن؟

جواب:

الفقه في الاصطلاح القرآني: فهم لما خفي من الأمور، كما قال تعالى: **(ولكن لا تفقهون تسبيحهم)**، وعلم بحقائق الدين والشرع والكتاب، المفضي إلى العمل به، ففقه العلوم بهذه الاعتبارات: فهم متخصص للعلوم وما خفي منها. ولكن ثمة اعتبارات أخرى يقتضيها مسمى العلم نفسه.

والواقع أن أول من استعمل مصطلح فقه العلوم في حدود علمي أبو يعرب المرزوقي عام ١٩٨٥ في كتابه **(الإبستمولوجيا البديل)** الذي نشره لأول مرة بعنوان: **(الإبستمولوجيا البديل: محاولة في فقه العلم ومراسه)**، ثم نشر مرة ثانية عام ٢٠٠٧ مع تعديل في العنوان والمتن، فكان عنوانه: **(الإبستمولوجيا البديل: مراس العلم وفقهه)**. ولكن استعماله للمصطلح جاء في صيغة المفرد **(فقه العلم)**، ولم يكن ناتجًا عن هم إبستمولوجي صرف، بل دخل ضمن مشروع فكري أوسع، فلم يشغل فيه إلا ٥ صفحات من الباب الرابع. وإنما استعملته لأول مرة كضميمة اصطلاحية، ومشروع إبستمولوجي صرف ومستقل، وفي صيغة الجمع **(فقه العلوم)** في كتابي **(دراسات في فلسفة العلوم الإسلامية وتاريخها)**، الذي صدر عام ٢٠٠٩.

ولا علاقة لهذا النحت الاصطلاحي **(فقه العلوم)** بمصطلح **(فقه الفلسفة)** لطه عبد الرحمن، لا معنى ولا مقصدًا، ولا استلهامًا. بل كان استلهامي له ابتداءً من مادة مصطلحية قديمة قريبة مما جنحنا إلى اختياره، أهمها **(فقه الحساب)** الذي عَنْوَنَ به الطبيب الرياضي المغربي أحمد بن إبراهيم بن علي بن منعم العبدري، المتوفى سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م كتابه البارع في الرياضيات، وانتهاء بلفظ فقه العلم الذي استعمله المرزوقي، رغم بعد الشقة في المرجعيات والدلالات والمقاصد بين استعمالي لفقه العلوم واستعمال ابن منعم لفقه الحساب والمرزوقي لفقه العلم.

لقد اخترت لفظ فقه العلوم ترجمة لفلسفة العلوم والإبستمولوجيا لشموله مقاصد تلك المباحث كلها، ومجالاتها، ويزيد عليها قدرته على استيعاب المجالات التي لم تمتحن فيها تلك المباحث، أعني مجال علوم الإنسان وعلوم الفرقان عمومًا، والعلوم العربية التي أهملها تاريخ العلوم الغربية لدوافع أيديولوجية واضحة. في حين ظلت المباحث الإبستمولوجية حبيسة مادة علمية هي العلوم الكونية التي لا تتعداها إلى العلوم الإنسانية إلا نادرًا، فظلت مناهجها ونظرياتها محدودة بحدود المادة العلمية التي اهتمت بها. كما يزيد عليها باتساع الفضاء التداولي الذي تشتغل فيه تلك العلوم وتتنفس من خلاله، في حين تظل فلسفة العلوم وأخواتها محدودة بحدود المجال التداولي الغربي الذي وجه أصحابها. وإذا كانت القاعدة الإبستمولوجية تقول: إن المنهج العلمي يتأثر بطبيعة الموضوع الذي يدرسه، فإن إغفال المادة العلمية الهائلة التي خلفتها العلوم الإسلامية في ألف عام أو يزيدون، قد أضر كثيرًا بالمناهج المستعملة في تاريخ العلوم في الغرب منذ نشأته إلى اليوم. وأي ضرر في المنهج يؤدي إلى الشك في صلاحية النظريات التي تم إنتاجها في حقل تاريخ العلوم بالصورة التي نشأ عليها وتطور في سياقها.

سؤال ٣:

هناك مراكز وحتى معاهد كمعهد حلب للتراث العربي، وماسترات في بعض الجامعات العربية، وندوات ومؤتمرات تعقد، تشترك كلها في مصطلح تاريخ العلوم العربية، كيف نميز بين فقه العلوم وتاريخ العلوم؟ وهل هذه الفعاليات يصح أن تدخل تحت مسمى فقه العلوم؟

جواب:

هذه الفعاليات تهتم بتأريخ حصاد المنجزات العلمية في التراث الإسلامي، وتشمل هذه المنجزات التعريف بالكتب والأعلام والنظريات التي تم اكتشافها، والآلات التي تم اختراعها. إنها تنتمي إلى علم التاريخ، وإن شئت قلت: إلى تاريخ الأفكار، لا إلى الإبستمولوجيا التي أدل عليها بلفظ فقه العلوم. ففقه العلوم يهتم بالعقل العلمي الذي أنتَج المعرفة، لا بحصاد المعرفة فقط، بالأصل لا بالثمرة. الأسئلة في فقه العلوم أقرب إلى ما سماه ابن خلدون بباطن التاريخ، في حين أن هذه الفعاليات تشتغل على ظاهر التاريخ.

سؤال ٤:

هل يمكن أن تحصر لنا بطريق السبر والتقسيم مجالات اهتمام فقه العلوم وأسئلته إذن؛ لكي نميزها بشكل واضح؟

جواب:

حسنًا، نستطيع القول إن مدار فقه العلوم على سؤالين كبيرين، يشكل كل سؤال منهما مجالاً واسعًا للبحث الابستيمي في العلوم، الأول: **كيف يتم بناء العلم**؟ والثاني: **كيف نؤرخ للعلم**؟ إذن لا يخرج عمل فقهاء العلم ولا مؤرخو العلم -بالمعنى الإبستمولوجي- عن هذين السؤالين الكبيرين بجميع اختصاصاتهم. لكن يتفاوتون في الدرجة فقط: بعض مؤرخي العلم قد يركزون على السؤال الثاني أكثر من الأول، وبعضهم لا. باشلار Bachelard في بعض كتبه التي يؤرخ فيها للعلم **(مثل كتاب فلسفة النفي)** تأريخًا إبستمولوجيًّا، بمعنى يتابع التعرف على بناء العلم بالوقوف على تاريخه. إذن سواء كنت إبستمولوجيا أو فيلسوف علم أو مؤرخ علوم، فلا بد أن تنشغل بهذين السؤالين، وإن بدرجات متفاوتة.

في التساؤل عن **بناء العلم:** هناك أسئلة أربعة يمكن وضعها على كل علم، بما في ذلك العلوم الإسلامية الدائرة على الوحي، كالتفسير والحديث والفقه وغيرها، والعلوم الدائرة على أمور الطبيعة كالفيزياء والبيولوجيا والرياضيات، والعلوم الإنسانية. فأسئلة بناء العلم تشكل القسم الأول من عناصر الدراسة الإبستمولوجية للعلوم كيفما كانت.

لبناء أي علم لا بد من أربعة شروط يجب أن يستقل بها عن غيره، فلا يُعطى أي علم ما لم يستقل بذاته شهادة الميلاد، وأولها: تحديد الموضوع العلمي: الذي به يبرر وجوده كعلم. الموضوع العلمي مجال الذي يتخصص فيه العلم ويبرر به وجوده العلمي علمًا مستقلًّا بين أصناف المعارف العلمية الموجودة في مجال تداولي معين، فلا بد أن يحدد بدقة. ثانيًا: اختيار منهج علمي مناسب للموضوع المحدد، يحقق الكفاية الآلية في دراسته، وثالثًا: لا بد من الصياغة النظرية للقوانين والنتائج التي أدى إليها تطبيق المنهج على الموضوع. وهو ما يعرف في الإبستمولوجيا باليقين العلمي، وبالنماذج العلمية التي تترجم البناء النظري للعلم. فحين تجتمع عندك عدة قوانين وجهاز نظري متكامل تلخصها في نموذج رمزي يسهل تعلمه في المدارس، ونقله في الجماعة العلمية. رابعًا: هاته العناصر الثلاثة تتخللها المفاهيم العلمية، فلا بد أيضًا أن تكون المفاهيم الاصطلاحية المستعملة في صياغة الموضوعات والمنهجيات والنظريات محددة بدقة. وهذا الجهاز المصطلحي لا بد أن يكون عدده قليلاً ودقيقًا، فكثرة المصطلحات وعدم وضوحها يربك الذهن فلا يكون البحث العلمي منتجًا ولا يثمر نتائج معرفية حقيقية، فقوة المصطلحات في إنتاجيتها لا في كثرتها العددية. فهاهنا أربعة أسئلة في بناء العلم:

أولاً: كيف يحدد العالم موضوعه؟ أي كيف ينظر إلى الواقع الذي يدرسه ويعرفه رغم ما فيه من مشكلات، أهمها أنه خفي معقد متداخل مع موضوعات أخرى؟

ثانيًا: سؤال المنهج العلمي: كيف يختار العالم منهجه المناسب لطبيعة موضوعه؟ وهل يحقق المنهج الواحد الكفاية المنهجية لدراسة الموضوع؟ وما حدود الاستعارة والتبادل المنهجي بين العلوم رغم تباين موضوعاتها؟

ثالثًا: سؤال البناء النظري للعلم: ما تعريف القانون العلمي؟ وما أصل النظرية العلمية؟ وما معيار الصدق فيها؟ وما قيمة اليقين العلمي أمطلق ينبع من عقلانية منغلقة، أم ظني ترجيحي نسبي يصدر من عقلانية منفتحة؟

رابعًا: سؤال المفهوم العلمي: وذلك من جهة نشأته وتطوره: كيف نشأ في ذهن العالم؟ وكيف تطور وتنقل بين العلوم؟ ثم من جهة تحديده ووظائفه: كيف توصل العالم إلى تحديد مفهوم معين، وما مرجعياته في ذلك، وما وظائفه؟ ثم من جهة تفسير المفهوم: كيف نفهم المفهوم في نسيج النص، وكيف نفسر تعدد مفهوم العلماء عن موضوع معين كالكتلة مثلاً؟ وأخيرًا من جهة انتظام المفهوم واختلاله: لماذا تختل المفاهيم كلما بلغت درجة قصوى من النضج؟ ولماذا يحكم التاريخ على مفاهيم معينة بالنسيان؟ وكيف تبتلع المفاهيم بعضها؟

تلك إذن أسئلة بناء العلم، أما أسئلة تاريخ العلم فأربعة:

سؤال التصنيف: ما وضعية العلم ضمن أصناف العلوم الأخرى ضمن تقليد علمي معين؟ وبأي معيار يتم رسم لائحة العلوم، وإصدار أحكام قيمة عليها أحيانًا: أبالقبول والرفض، أم بالتشريف والذم، أم بالتفاضل عمومًا؟

سؤال التحقيب: ما المراحل الكبرى التي عرفها العلم وعبرت عن تحولات جوهرية في أسسه الموضوعية والمنهجية والنظرية والمفهومية؟ كيف يفسر هذا التحقيب: أبالتراكم والاتصال وتبادل التأثير، أم بالقطيعة والانفصال وغياب التأثر والتأثير بين مجتمعات العلم عبر التاريخ؟

سؤال التقاليد العلمية للجماعات العلمية: ما خصائص العقل العلمي التي وجهت الجماعة العلمية وآليات البحث العلمي فيها، موضوعًا ومنهجًا ونتائج نظرية ولغة مفهومية؟

سؤال العوائق الإبستمولوجية وعلاقة العلم بالاعتقاد: ما العوائق التي تحول دون التطور الطبيعي للعلم، سواء منها العوائق الذاتية المرتبطة بمعتقدات العالم وفلسفته المضمرة، أو بأدواته القياسية المؤثرة في موضوعاته، أو العوائق الموضوعية المتصلة بالموضوعات المدروسة نفسها من جهة تعقدها وتداخلها وخفائها؟

سؤال ٥:

من الناحية المنهجية: كيف يفعل فقيه العلم في ترتيب دراسته: أبناء العلم يبدأ، قبل تاريخه، أم العكس؟ أم إنه يشاغل بهما معًا متزامنين؟ وإذا كان هذا الأمر يتم تزامنيًّا، كيف يتسنى له القيام بذلك؟

جواب:

هذا سؤال جيد. وهو يتعلق بالترتيب المنهجي بين الدرسين الزماني **(التاريخي)** والتزامني **(البنائي)** للمعرفة العلمية. والصواب

أنهما يتمان بشكل تزامني، لكن مع الاختيار بين مدخلين، كلاهما يصح: أي أن يكون أحدهما مدخلاً للنظر في العلم، ثم يوظّف الآخر في البناء التحليلي النقدي. فالفصل بينهما إجرائي وإلا فالعمل في البحث الإبستمولوجي يجب أن يكون مترابطًا. فلا قيمة للنقد الإبستمولوجي للمعرفة إذا لم يستحضر بناءها التاريخي، أي كيف تبلور وتطور ونضج عبر التاريخ سواء في مستولى الموضوع أو المنهج أو النتائج أو المفاهيم. فإذا كانا متداخلين فمن الناحية العملية كيف نفعل؟ أي ترتيب منهجي نتبع؟ يمكن أن نبدأ بتاريخ العلم بحيث نجعله مقصدًا وضمن كل مرحلة تاريخية ندرج الموضوعات والمناهج والنظريات والمفاهيم. مثلاً أقرر أن أكتب في تاريخ الفيزياء مرت الفيزياء بثلاث مراحل: هي الفيزياء الفلسفية القديمة اليونانية، ثم الفيزياء العلمية الكلاسيكية ثم الفيزياء المعاصرة، وفي كل مرحلة أستعرض موضوع العلم ومنهجه ونظرياته ومفاهيمه. ثم هناك طريقة ثانية: أن تجعل بناء العلم هو المقصد الأصل، وفي كل جزئية **(كالموضوع مثلًا)** تدرسها دراسة تاريخية، ثم تنتقل إلى الجزئيات الأخرى وتفعل الشيء نفسه. وفي مثال الفيزياء: تدرس بناء الموضوع الفيزيائي عبر مراحل الفيزياء الثلاث، ثم منهجها عبر المراحل نفسها، وهكذا تفعل مع النظريات والمفاهيم.

أي أن هناك مسلكين: بناء العلوم **(مقصد)** وتاريخ العلوم **(وسيلة)**، أو العكس.

سؤال ٦:

ذكرت أن سؤال المنهج هو سؤال منهم من أسئلة فقه العلوم. هل يعني ذلك أن علم المناهج أي الميتودولوجيا هي جزء من عمل الإبستمولوجيين؟ أعني هل يفهم من كلامك أنها فرع من فقه العلوم؟

جواب:

لا، لم أقصد هذا، فعلم المناهج الميتودولجيا methodology هو فرع علمي مستقل بذاته، مع أنه نشأ في أحضان المنطق ابتداءً. لكنه صار يعنى بوصف المناهج المستعملة في العلم من حيث أصولها وقواعدها وإجراءاتها التفصيلية في كل علم. وقد يضاف هنا إلى الميتودوجيا أيضًا تطور الطريقة التي يستعملها علم من العلوم في فترة زمنية معينة. إذن الميتودولوجيا مهمتها وصفية وتأريخية أحيانًا. في مقابل ذلك يدرس الابيستمولوجي مناهج العلوم، لكن ينظر إليها نظرًا تحليليًّا نقديًّا مقارنًا، فينظر إليها أولاً من حيث صلتها بموضوعاتها التي وضعت لها، وهذا عمل نقدي لأنه يتساءل عن مدى مناسبة المنهج لهذا الموضوع، وينظر إلى المناهج ثانيًا من حيث صلتها بمناهج العلوم المناظرة لها، فهنا المقارنة ليست بين الموضوع والمنهج، بل بين المنهج ومناهج أخرى تناظره، بحثًا عن جسور تكون رابطة بينها أو اختلافات يمكن أن تبعد بعضها عن بعض، وثالثًا يقوم الإبستمولوجي بدراسة المفاهيم والعمليات المنهجية بخلفياتها الفلسفية وكيفية اشتغالها في العلم. وهذا مستوى أرقى من

العمل الوصفي. لأن النظر في المفهوم نظر في مفتاح العلم نفسه، ورابعًا: دراسة تطور الطريقة العلمية ذاتها لا دراسة ميتودولوجية وصفية، بل دراسة نقدية؛ إذ يقع في الطريقة المنهجية ما يقع أحيانًا في بناء العلم كله من انقلابات وثورات وتغيرات جذرية، وما يصاحبه من مشكلات فلسفية. وأخيرًا: ربط الطرائق المنهجية بمفهوم التقليد العلمي أو البراديم العلمي باصطلاح توماس كون. وهذا أمر لا يهم الميتودولجيا؛ لأنها لا تهتم بالجماعات العلمية كيف تستعمل الأدوات المنهجية، وإنما تهتم بالأداة في نفسها، فلا تربطها بمفهوم التقليد العلمي، الذي هو من أهم مجالات فقه العلوم كما ذكرنا.

سؤال ٧:

بمناسبة ذكرك لمفهوم التقليد العلمي، جرى الاصطلاح في الثقافة الإسلامية على ذم التقليد في العلوم، لكننا نلاحظ أن فقه العلوم يعتبره مفهومًا إيجابيًّا لا مذمومًا، كما يلاحظ من كلامك. هذا قد يترك التباسًا مفهوميًّا عند الاستعمال. كيف يمكن رفع هذا اللبس؟

جواب:

نشير هنا إلى أمرين:

أولهما: أن الذم للتقليد أمر طارئ لا أصل في لغة العرب. فالمادة اللغوية **(قلد)** في المعجم العربي لا ترد إلا بمعانٍ إيجابية، فالقلد الجماعة من الناس، والفُرُسُ المقلَّدة هي المشرَّفة لسبقها، فالأصول الدلالية لهذا اللفظ لا ذم فيها. الذم بدأ مع المادة الكلامية، وهو طارئ على البحث الأصولي من ارتباطه بالمادة الكلامية. وقد لا يكون في ذلك عيب؛ فتطور الدلالات مدحًا وذمًّا يطرأ على الاستعمالات. ولا يضير فقيه العلم أن يرجع إلى الأصل المعجمي لنفخ الروح في دلالات لغوية أصيلة، شريطة تبيان مقاصده.

والأمر الثاني: أن التقليد العلمي في الإبستمولوجيا هو من أغنى المصطلحات، ومن أكثرها خصوبة، ولا تحمل المعنى المذموم للفظ. مفهوم التقليد له معنى إيجابي جدًّا: فلا تتطور المجتمعات إلا بوجود تقاليد علمية راسخة بين جماعاتها العلمية. علامة نهضة المجتمع وجود هذه التقاليد العلمية الراسخة، الحية المنتجة للعلم. الإنتاج العلمي لا يولد من فراغ، بل من جماعات علمية تتواطأ على قواعد بحثية علمية قوية. فإذا غابت التقاليد العلمية من مجتمع ما فاعلم أنه ليس مجتمعًا علميًّا أصلاً. المجتمع العلمي هو الذي فيه تقليد علمي. والمجتمعات العربية اليوم ليست مجتمعات علمية لأنها لا تمتلك تقاليد علمية قوية. فقد فقدت الصلة بتقاليدها العلمية القديمة التي اندرست، ومقطوعة الصلة بالتقاليد العلمية العالمية، لأنها تستهلك نتاج معرفة الغير، وتعيد تسويق قشوره بين أبنائها بلغة الآخر، لأغراض براغماتية عابرة. يبدأ إنتاج المعرفة وتأسيس مجتمع العلم بترسيخ تقاليد علمية منتجة، ولا تترسخ عده التقاليد من دون توطين العلم، توطينه تفكيرًا ولغة ومؤسسات، بدل استيراد قشوره.

سؤال ٨:

تدفعني -دكتور- أن أثير سؤالاً يفرض نفسه، في هذا السياق، وأنت تتحدث عن توطين المعرفة لا عن نقلها، أتدخل بحوثك ومشاريعك في فقه العلوم تحت توطين هذا النمط من الدرس العلمي للعلوم، أم هو مجرد نقل لما أنتجه الغرب أيضًا؟ وبالتالي: ما الذي يمكن أن تستفيده العلوم الإسلامية من فقه العلوم؟

جواب:

أشرت في جواب سابق إلى الميدان الذي نشطت فيه الإبستمولوجيا في الغرب في البداية ولفترة طويلة كان هو الطبيعيات، وأن الأبحاث الإبستمولوجية في مجالات العلوم الإسلامية ما زالت لا تتقدم بخطى قوية، وتُنزَّل بمعانٍ فاسدة أحيانًا، أو بمعانٍ صحيحة ولكن مع الاقتصار على العلوم الدقيقة في تراثنا. وقد آن الأوان لامتحان أدوات الإبستمولوجيا وهي تدرس مادة غير المادة التي تخلقت فيها، فلعلنا نعيد تخليقها خلقًا جديدًا بفضل التربة النوعية التي سيعاد إنشاؤها فيها إنشاء، على قاعدة الإبستمولوجيا نفسها: أن طبيعة الموضوعات تؤثر في المنهجيات. فالقصد الاجتهاد في التوطين العلمي الذي يعني إعادة الإنشاء والتخليق لا النقل الآلي للثمار الجاهزة. ولذلك ففقه العلوم هو الذي سيستفيد من العلوم الإسلامية، بحيث يطور آلياته، ويجددها ويوجهها في مسار يمكن للغرب أي يفيد منه مستقبلاً في العلوم الإنسانية والبحوث الثيولوجية.

على أن البحث في تاريخ العلوم الإسلامية نفسه سيطور من آلياته، ومسالكه في النظر، فيتحقق له من خلال فقه العلوم ثمار نافعة شتى تمثل **رهانات فقه العلوم الإسلامية. وأجمعها في** أربعة رهانات: علمية، ومنهجية، وتربوية، وتطبيقية.

المستوى العلمي: يمكننا فقه العلوم من إعادة بناء العلوم الإسلامية، ومعرفة صور التعقل في التراث العلمي الإسلامي، وربط التصنيفات والمفاهيم بمرجعياتها، وإعادة بناء الموضوعات والمفاهيم العلمية، وتجاوز الرؤية التجزيئية للعلوم. ودراسة المكونات النظرية في الإنتاج العلمي الإسلامي، ورؤية التنوع الواصل بين العلوم، ورؤية التعدد الممكن بين النظريات والمدارس، ومعرفة طبيعة النظرية العلمية بحسب مجاله، ومعالجة الشروخ الموروثة كشرخ العقل والنقل، وشرخ الشريعة والحقيقة.

إن فقه العلوم يجدد طريقة في النظر إلى العلوم الإسلامية، ويمكن أن نقول إنها جديدة إلى حد بعيد لأنك تقرأ المادة العلمية قراءة جديدة توجه نظرك إلى مساحات واسعة في العلوم الإسلامية وفي طريقة بنائها، وبالتالي أنت تدفع الإنسان إلى الاجتهاد في العلم. سيفكر الكثير من العلماء والباحثين حين يكتشفون أن قطاعات مهمة من الموضوعات العلمية مثلاً لم تدرس بالشكل الكافي في أن يشقوا الطريق إليها بالبحث والدرس. وفقه العلوم يعطيهم أيضًا شروط بناء هذه الموضوعات العلمية. فقه العلوم إذن يحطم أسطورة المعلم الأول والمعلم الثاني. سنحتاج إلى معلم ثالث ورابع وخامس... سنحتاج دائمًا إلى معلمين جدد يفتحون قارات

جديدة في البحث العلمي. إذا أنت أدركت الآن أن خريطة العلوم، ورأيت الفراغات والبياضات التي تحتاج إلى إعادة ملء، والثغرات التي يجب أن تزول، ستجتهد في الملء والتصحيح. النظر الابستيمي حقيقة يفتح نافذة لترقية المستوى العلمي بين الناس، ورفع الطالب إلى مستوى الباحث، ورفع الباحث إلى مستوى العالم، ورفع العالم إلى مستوى فقيه العلم. وهذه أرقى درجة يمكن أن يرقى إليها العالم في تخصصه.

المستوى المنهجي: يمكننا فقه العلوم من تعلم المنهجيات العلمية. فيتعلم الباحث دراسة المكونات المنهاجية للعلوم الإسلامية: بمعرفة أصولها العامة، وقواعدها الخاصة، وإجراءاتها التفصيلية، وعلاقاتها بموضوعاتها، وطرق التدليل على الأحكام العلمية، ومدى مناسبة الدليل لما يستدل به عليه، ومدى صلاحية الدليل الواحد لأكثر من موضوع، ومعرفة العلاقة بين تطور الدليل وتطور الموضوع. فضلاً عن إغناء المناهج المعاصرة بمناهج لم تعرفها لاختلاف المجالات التداولية، وامتحان الأدوات المنهجية المعاصرة في موضوعات علمية مختلفة.

أنت تقرأ مناهج هذا التخصص، وتقرأ استعارة المناهج بين العلوم المختلفة، فيتكون عندك زادٌ منهجي كبير، وقدرةٌ منهجية كبيرة. وهذا مطلب مهم جدًّا للباحثين المعاصرين في العلوم الإسلامية.

المستوى التربوي: فحينما تقرأ العلوم بمنظار فقه العلوم تتمكن من تعميق دراسة العلوم الإسلامية، بإدراك طبيعة العلم المدروس وموقعه من خارطة العلوم الإسلامية، ويتكون لديك الحس النقدي، وتتمكن من معالجة سوء الفهم بعمق الفهم واستحضار تاريخ العلوم وأحقابها، وتصنيفاتها، فتعرف من أين تبدأ العملية التعليمية عالمًا كنت أو متعلمًا. عندما تنقل علمًا إلى الناس تعرف كيف تبدأ في داخل العلم نفسه، من المادة التي يدرسها، إلى المنهج الذي يستعمله، إلى النظرية التي توصل إليها، إلى النماذج التي تختزل النظريات. إذن أنت أمام عملية بيداغوجية سليمة جدًّا. ثم في أصناف العلوم تتعلم قاعدة التدرج في تقديم تعلم هذا العلم على هذا، وهذا الكتاب على ذاك، وتفتح لحسن السؤال مكانًا لائقًا في حلقة التعليم.

المستوى التطبيقي التنزيلي: ففي نهاية المطاف إنما يُدْرَس العلمُ لينزَّل في الواقع، ولكي تعرف كيف تستثمر المفاهيم والأحكام بناءً على فهم مناطاتها، وتنزلها في أرض الواقع. ويندرج تحت هذا البعد التطبيقي ما يتعلق بالتجليات الحضارية للتفكير العلمي الإسلامي: كيف تم بناء مجتمع العلم؟ وما تجلياته في المدارس والمؤسسات وفي التطور التقني والمختبرات العلمية، والحسبة المهنية على العلماء، واجتماعيات المعرفة العلمية في الإسلام؟ وهي أمور لا ينظر إليها فقيه العلم بمنظار التغني بالأمجاد ومنجزاتهم، وإنما بالتحليل الوصفي والتاريخي والنقدي، الذي يبحث في كيفية نشوء التفكير العلمي الإسلامي، وكيفية تطور المجالات البحثية التخصصية، والممارسات المصاحبة لكل ذلك.